مجلة أنساق للفنون والآداب والعلوم
الإنسانية
الإصدار السابع عشر
المجلد (٥) العدد (٤)
٢٠٢٤ (١-١١)

مجلة
أنساق

Middle East Institution of scientific Publishing

الرّمز في الشّعر العربي الحديث، دراسة تحليلية في شعر سعدي يوسف وأحمد مطر

م. خلدون كاظم هاشم مصطفى الموسوي

جامعة البصرة للنفط والغاز ،كلية هندسة النفط والغاز

قسم الهندسة الكيميائية وتكرير النفط.

أ.م.د. ميثم حاتم

جامعة الأديان والمذاهب، إيران.

نشر إلكترونياً بتاريخ: ١٩ نوفمبر ٢٠٢٤م

This work is licensed under a Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International License.

الملخص

إنّ توظيف دلالة الرمز (صورة الرمز ، شعرية الرمز ، دلالة الرمز ، أنماطه ، إيحائاته) ، في القصيدة الشعرية الحديثة سمة مشتركة بين غالبية الشعراء (الشعراء العرب قديما وحديثا) ، على مستويات متفاوتة من حيث الرمز البسيط إلى الرمز العميق في الشعر ، وإذا وظف الرمز بشكل جمالي منسجم دقيق ، واتساق فكري فأنهُ يسهم في الارتقاء بشعرية القصيدة ودلالاتها وسماتها وهدفها وعمق الدلالة الرمزية وشدة تأثيرها في المتلقي، وقد غرف الشعراء المحدثين من معين الرمز الأسطوري والتراثي و الصوفي صوراً فنية للواقع واستمدوا منه كل ما يشجعهم ويدفعهم إلى الإبداع والتألق ليأخذ صداه في حياتنا ، لكنّ ذاك الصّدى يصبح أكثر مرونة ووضوحاً في منجزات الأدباء والشعراء ؛ إذ عرضوه وفقاً لآليات عديدة مختلفة ، تنوّعت بين مستويات عديدة ودقيقة ، كان منها المستوى الرّمزيّ ؛ إذ جسّد الرّمز أداة فاعلة لرصد التّردّي الذي حلّ بالواقع العربي خصوصا في الأدب العربي جانب الشعر ، فكان هناك معجم خاصّ لرموز واقعيّة خاصّة ؛ إذ كان الشّوك رمزاً للمعاناة ، وكان الجراد رمزاً للمستغِلّين والمتسلطين ، وكان المطر والماء رمزَي التّطهير والخير والبركة والرزق ، ولهذا جاء هذا البحث بعنوان: (الرّمز في الشّعر العربي الحديث ، دراسة تحليلية لسعدي يوسف وأحمد مطر).لكثرة استعمالهم للرمز .

Abstract

The use of the meaning of the symbol (the image of the symbol, the poetics of the symbol, the significance of the symbol, its patterns, its connotations), in the modern poetic poem is a common feature among the majority of poets (Arab poets, ancient and modern), at varying levels, from the simple symbol to the deep symbol in poetry. If the symbol is used in an aesthetically precise, harmonious

manner, and with intellectual consistency, it contributes to elevating the poetry of the poem, its connotations, characteristics, purpose, the depth of the symbolic connotation, and the intensity of its impact on the recipient. Modern poets have imbued artistic images of reality with artistic images of reality and derived from it everything that encourages them and pushes them to creativity and brilliance. To take on its resonance in our lives, but that resonance becomes more flexible and clear in the achievements of writers and poets.

They presented it according to many different mechanisms, varying between many and precise levels, including the symbolic level; As the symbol embodied an effective tool for monitoring the deterioration that befell Arab reality, especially in Arabic literature and poetry, there was a special dictionary for special realistic symbols. The thorns were a symbol of suffering, the locusts were a symbol of exploiters and tyrants, and rain and water were symbols of purification, goodness, blessing and sustenance, and that is why this research was entitled

(The symbol in modern Arabic poetry / an analytical study by Saadi Youssef and Ahmed Matar). Due to their frequent use of the symbol

*** هدف البحث**

إبـراز القــدرة الحقيقيـة والفعلية للغـةِ العربيّـة على مواكبـة كـلّ التّطـوّرات اللغـويّة والدّلاليّـة والمعنـويّة، باستخدام الرّمـز في تقديم الفكــرة وخصوصـا في الشعــر العــربي الحديث علما أن اللغة العربية لغـة حيـة ولادة لا تموت

*** أهمية البحث**

تأتـي أهمّيّـة البحث (الرمــز في الشعر العربي الحديث / دراسة تحليلية في شعر سعدي يوسف وأحمد مطر) ، ممّا يقدّمه في النّصّ الشّعــري من دور يحمل على عاتقــه دلالات النّصّ ومعانيه وأهدافه مع بيان تحليل النص الشعري لشاعرين فذين مبدعين في استعمال الرمز .

*** منهج البحث**

استند البحث بالاعتماد على المنهج الوصفيّ التحليلي بأداته التّحليـل التي تعين على استقراء النّصوص الشّعريّة، ودراستها وتحليلها وبيان الهدف والغاية التي كتب الشاعر فيها لغته وكثرة استعمال الرمز، وعليه فقد انتظم البحث في مقدمة ، ومن ثمّ تمهيد عرّف بالرّمز لغة واصطلاحاً، ودلالة الرمز عند العرب ولماذا استعان الشعراء بالرمز دون البوح بما يجول في مشاعرهم مباشرة فقد جاء المبحث الأوّل بعنوان : الرّمز في شعر سعدي يوسف ، وخصّص المبحث الثاني لدراسة الرّمز في شعر أحمد مطر.

*** التّمهيـد**

لم يكن الرّمز أداة كشف فحسب عند العرب بشكل عام وخصوصا في الشعر العربي، بل كان وسيلة من الوسائل التي حاول بها الأدبـاء والكتاب والنقـاد والشعـراء إبراز قدرتهم الأدبية والكتابية والإبداع فيه، وتجتاز الرّمـوز بشكل عام البُنى العميقة وصولاً إلى المستوى الواقعي الدّقيق المليء بانفعالات وأحاسيس المبدع، والحاضن فلسفته تجاه

الموضوع الواقعي الذي يرصده، خاصة أن الشاعر يريد إيصال ما في داخله من هواجس ومشاعر وأحاسيس الى المتلقي.

*** مفهوم الرّمز**

في تبيان المعنى الحقيقي الرّمز نقف على دلالته لغةً واصطلاحاً، فهو لغة: " الصَّوتُ الخفِيُّ لا يكادُ يُفهَمُ".[١]

أمَّا اصطلاحاً: فيعرِّفهُ ابن رشيقٍ القيروانيُّ بالقولِ: " الإشارةُ في كلِّ نوعٍ من الكلامِ لمحةً دالَّةً واختصاراً وتلويحاً، ومعناهُ بعيدٌ من ظاهرِ لفظِهِ " .[٢]

وفي الدَّراساتِ اللِّسانيَّةِ يعرَّفُ الرَّمزُ بأنَّه "اقتصادٌ لغويٌّ، يكثِّف مجموعةً من الدّلالاتِ لعلاقاتٍ في بنيةٍ ديناميَّةٍ تسمحُ بالتَّعدّدِ والتَّناقضِ، مقيماً بينهما أقنيةَ تواصلٍ وتفاعلٍ، وهو لذلكَ علاجٌ لنقصِ المنطقِ وضيقِ البُنَى التي ترفض التَّناقضَ كما أنّهُ علاجٌ لجمودِ المعطياتِ والمفهوماتِ الثَّابتةِ، والرمزُ إشارةٌ إلى احتمالاتٍ تتفلَّتُ من التَّعبيرِ المعقلنِ، وإلى غائبٍ لا يحيط بهِ التَّعبيرُ المباشرُ".[٣]

إنَّ التَّعريفَ السَّابقَ الذي قدَّمتهُ النَّاقدةُ (خالدة سعيد) يلخّصُ دورَ الرَّمزِ في تكثيفِ المعنَى وفي إعانةِ المبدعِ عندَ قصورِ اللّغةِ على استيعابِ معانِي الشِّعر حيث يتمُّ تحميلُ اللَّفظِ الرَّامزِ كثيراً من الإيماءاتِ تبعاً للسّياقِ النَّصّيّ المتحقِّق، وما يحمله الرمز من دلالات خفية في النص.

ومن ثمّ فإنَّ الدّراسة تتمحورُ على دورِ الرَّمزِ بوصفهِ: «أداةً لغويّةً تحملُ وظائفَ جماليَّةً تسهمُ في تشكيلِ تجربةِ الشَّاعرِ على نحوٍ مؤتلفٍ مع مكوّناتِ النَّصِّ الفنِّيِّ»[٤]؛ أي إنّ الرّمز لم يكن مجرّد إشارة عابرة بل يحمل دلالة معيّنة يرغب الشّاعر في إيصالها إلى المتلقّي.

والرّمز " هو كلّ إشارة أو علامة محسوسة تُذكّر بشيء غير حاضر، ووظيفة الرّمز هي إيصال بعض المفاهيم إلى الوجدان بأسلوب خاصّ لاستحالة إيصالها بأسلوب مباشر"[٥]، فالرّمز رسالة من شخصٍ لآخر، ومن زمنٍ سابق إلى آخر لاحق، وقد كان الرّمز عنواناً لحياة الإنسان البدائي ووثيقة تاريخه وحضارته، قبل أن يصبح ضرورة شعريّة حداثيّة، إنّه أيقونة دلاليّة تشي بكثير من المعاني تتجاوز معناها المعجمي، وتدخل في مساحة التّأويلات التي يحملها لفظ الرّمز.

وهذه التّعريفات تبلورت في معاجم المصطلحات، فكان الرّمز فيها أنموذجاً حضورياً خاصّاً فـ " هو شيء يعدّ ممثلاً لشيء آخر، وبعبارة أكثر تخصيصاً، فإنّ الرّمز كلمة أو عبارة أو تعبير آخر يمتلك مركباً من المعاني المترابطة، وبهذا المعنى ينظر إلى الرّمز باعتباره يمتلك قيماً تختلف عن قيم أي شيء يرمز إليه كائن ما كان، وبذلك يكون العلم وهو قطعة من القماش يرمز إلى الأمة " [٦]، وأيّاً كان مفهوم الرّمز وتعريفه، فهو آليّة تعبيريّة من آليّات العمليّة الإبداعيّة التي لها لدى كلّ مبدع خصوصيّة وحضور.

وتختلف دلالة الرّمز حديثاً عن دلالته فيما مضى، وذلك عبر علم الدّلالات والإشارات، ولعلّ الرّمز كان سابقاً للدّلالة على حضارات الشّعوب وأديانهم ومعتقداتهم، أمّا في

---

[١]- نقد النثر، قدامة بن جعفر، حقّقه: د. طه حسين بك، وبعد الحميد العبادي، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة – مصر، ١٣٥٦ هـ - ١٩٣٧ م، ص٦١.

[٢]- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت – لبنان، ج٢٠٦/١.

[٣]- حركية الإبداع- دراسات في الأدب العربي الحديث، د. خالدة سعيد، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦م، ص١٩٢.

[٤]- جماليات الأسلوب، الصورة الفنية في الأدب العربي، د. فايز الداية، دار الفكر، دمشق – سورية، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م، ص١٧٥.

[٥]- المعجم الأدبيّ، جبّور عبد النّور، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٨٤ م، ص١٢٣.

[٦]- معجم المصطلحات الأدبيّة، إبراهيم فتحي، المؤسسة العربيّة للنّاشرين المتّحدين، تونس، ط١، ١٩٨٦م، ص١٧١.

يومنا هذا فقد يحمل دلالات أخرى، " فالرّمز علامة تعريف "[1]، وهو " الشيء الموحي بمعانٍ مُتعدِّدة " .[2]

وتتحاور النّصوص الإبداعيّة (الشعر) قديمها وجديدها تحاوراً يجعل من بنية النّص الجديد حيّزاً يستوعب التّجربة الإبداعيّة فيتفاعل معها المتلقّي.

*** الرّمز في شعر سعدي يوسف**

يُشكّل الرّمز عند الشاعر سعدي يوسف إحدى التّقنيّات الشّعريّة التي أفصح بها عن دلالة غير مباشرة، أراد بوساطتها تكثيف المعنى واختزاله بنيويّاً وإطلاقه في فضاءات المعنى، ففي قوله :[3]

للقادمِ من تلّ الزّعتر منخوباً بالرّخّات
للمتلثّم في الليل العربيّ... ضماد الأموات
للقادم من نهر البارد
والقادم من أيلول العام السّادس والسّبعين
للمتقدّم مع قائمة القتلى
للنّاشر ألبسة الأطفال المذبوحين
تقدّم هذا الحمأ المسنون

يمثل الليل العربيّ رمزاً للنّكبات العربيّة والظّلم والجور، فقول الشاعر: (ألبسة الأطفال المذبوحين) رمز للمجاهرة بالجرائم ونشرها، وعدم خوف الجاني وثقتهِ من عدم وجود معاقبٍ ، والضّحية أطفال مذبوحين، ممّا يعمّق أثر الجريمة الشّنعاء، لكنّه الرّمز الشّاعر (الحمأ المسنون) بكلّ ما يحمله من إشارة إلى الثورة ورمز لها والشاعر يريد إيصال رسالة صريحة وواقعية لما يحدث في العالم العربي .

لقد قام الشّاعر باستكمال ما تعجز الكلمات عن إبرازه، فمنح الرّمز للشّاعر الآليّة الفعّالة لتجاوز حدود القيد اللفظيّ، والامتداد في الفكر الشّاعر، وذلك عبد العدول عن المألوف، وتحميل الرّموز شحنات دلاليّة وانفعاليّة كثيرة، ففي قوله :[4]

سوف يجيء المطر
ولا برق في آخر الأفق
لا رعد في القلب
لا موجة في النّهر
هكذا نتعلّم
أو نتكلّم
أو ننتمي للشّجر

يمثّل المطر رمزاً للتّطهّر والخلاص وكذلك رمزا للخير والبركة والعطاء، ويمثّل البرق رمزاً للأمل، وتمثّل الموجة رمزاً للاستمراريّة والتّتالي، أمّا الرّعد فهو رمز للخوف والغضب والانتقام ، إنّها مدرسة من الرّموز التي تتالى لتكوّن مشهد حياة الانتقام ، ويتيح الرّمز للقارئ الوقوف على لغة تتوارى في داخلها لغة أخرى، مثيرة وعي المتلقّي، وشاحنة إيّاه بالمستويات الانفعاليّة التي تثير في أعماقه أبعاداً جماليّة تجعله مشاركاً في تجربة الشّاعر الشّعوريّة.

ويبرز الرّمز قدرة الشّاعر على استيعاب تفاصيل الواقع ومجرياته كلّها، ورصدها وبنائها خياليّاً أو واقعيّاً، عبر معطيات الرّمزيّة الشّعريّة، معيداً صياغة الكلمة من حقلها المعجميّ إلى حقلها الدّلاليّ الذي استوعب كثيراً من الدّلالات والإيحاءات، ففي قول الشّاعر :[5]

[1]- الموسوعة الفلسفيّة، لالاند أندريه، ترجمة خليل أحمد خليل، عويدات للطّباعة، بيروت – لبنان، ٢٠٠٨، مج٣، ص١٣٩٨. و الرّمز والرّمزيّة في الفنّ التّشكيليّ، سعيد درويش، أ. د. عبد الله السيّد، محمّد محفل، مجلّة جامعة دمشق للعلوم الهندسيّة، مج٢٩، ع١، ٢٠١٣، ص٦٦١.

[2]- الرّمزيّة، تشارلز تشادويك، ترجمة نسيم إبراهيم يوسف، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٩٢ م، ص١٥

[3]- الأعمال الشّعريّة، سعدي يوسف، منشورات الجمل، بيروت – لبنان، بغداد – العراق، ط١، ٢٠١٤م، ج٢٤/١.

[4]- المصدر السّابق، ج٣٠/١.

[5] الأعمال الشّعرية، سعدي يوسف، ج٤٩/١.

فجأة، تصبح القصائد أحجاراً... هو الصّحو
في زمان التّردّي/ الارتداد/ الخطيئة
الأمل المصهورر.
من أطلق النّسور على لحم الفتاة الوديعة؟

إنّ النّسور رمز للمستغلّين والغاصبين والمتسلطين، والفتاة رمز للأمّة العربيّة المغتَصَبة، وزمان التّردّي رمز لزمان المستعمر والخوف والظّلم (من أطلق النّسور على لحم الفتاة الوديعة).

كانت الرّموز مفاتيح جعلت المتلقّي ينصرف عن المعنى المعجميّ ويدخل إطار التّأمّل الوجوديّ، فالنّسور التي انقضّت على لحم الفتاة الوديعة ليست إلّا جُناة الجريمة التي وجدت في العروبة الجميلة ما أغراهم بحسنها وخيراتها فشوّهوها جميعاً حين أعمَلَ كلّ منهم مخالبه في حُرْمَة أرضها. يشكّل الغاب مستوى محدّد من مستويات إغناء الانفعال الشّعوريّ لدى الإنسان العربيّ؛ لأنّ الغاب بالنّسبة إلى الشّاعر العربيّ هو الوطن، لكنّه الوطن الذي انتشر فيه قانون الغاب، وحوّل صفاءَه إلى مآسٍ، ففي قوله :[1]

مرّتين انتهيت إلى غاية..
مرّة كنت مستسلماً لرفاق الطّفولةْ
للعيون التي كنت أقرأ في عمقها السّر، والقمر، والسّعفات النّحيلة
للأكفّ التي كنت لاعبتُها
يا غابة للطّفولة:
كيف أتيناكِ مستسلمين؟

تمثل الغابة رمزاً للحياة الفطريّة النّقيّة، وتمثل موطن الذّكريات، لكنّ الشّاعر انتهى إلى غابته مرّتين: إحداهما لحظة الولادة، والأخرى لحظة الاستسلام، وفي اللحظتين توتّر الذات بين طرفي نقيض الأحداث، بين قانون الغابة الذي هيمن على الوطن العربيّ، ونقاء هذا الوطن الأمّ.

لقد اتّجه الشّعر العربيّ عموماً إلى الاستعانة بالرّمز ليس اعتباطا بل لغاية وهدف مهم، لكنّ الشّاعر جعل الرّمز عنصراً فنّيّاً قويّاً، وملأه بالانصهار الدّلاليّ المنفتح على آفاق الرّؤيا من أجل إبداع المتلقي.

يصوغ الشّاعر برمزه لغة شعوريّة جديدة يشوبها الحزن العميق، لكنّها اللغة التي تنطق بما تعجز اللغة التّقريريّة عن النّطق به، وتتحدّد معالم هذه اللغة عبر سياق القرائن والصّور الرّمزيّة التي تثري النّسق الشّعريّ، ففي قول الشّاعر:[2]

شمعة في الطّريق الطّويل
شمعة في نعاس البيوت
شمعة للفنادق تكتظّ بالهاربين
شمعة للمذيعين في مخبأ
شمعة لزجاجة ماء
شمعة لحبيبين في شقّة عارية
شمعة للبداية
شمعة للنّهاية
شمعة للقرار الأخير
شمعة للضّمير
شمعة في يدي

تمثّل الشّمعة رمزاً للهداية والحرية وفي هذا النّصّ خصوصا، فالشّاعر يريد أن يهب تلك الهداية لمفاصل حياتيّة ووجوديّة كثيرة ، وفقاً للآتي: –

[1] الأعمال الشّعرية، سعدي يوسف، ج١/٧٥.

[2] الأعمال الشّعرية، سعدي يوسف، ج٢/٢٣٥-٢٣٦)

العبارة	الدّلالة
شمعة في الطّريق الطّويل	توضيح درب النّضال وجعله منارة للقادمين
شمعة في نعاس البيوت	القضاء على الغفلة
شمعة للفنادق تكتظّ بالهاربين	كشف الهاربين
شمعة للمذيعين في مخبأ	فضح المتواطئين الصّامتين عن النّطق بالحقّ
شمعة لزجاجة ماء	فضح الثّوائب والقذارات
شمعة لحبيبين في شقّة عارية	فضح العهر الاجتماعيّ
شمعة للبداية	إضاءة أمجاد البدء العربيّ منذ الأزل
شمعة للنّهاية	فضح ما آلت إليه حال الأمّة العربيّة
شمعة للقرار الأخير	كشف الأوراق المستورة وما آلت إليه
شمعة للضّمير	إيقاظ الضّمائر البشريّة
شمعة في يدي	أثر الشّعر الملتزم الذي تحلّى به الشّاعر لإنارة عقول الآخرين

إنّ طبيعة الرّمز الشّعريّ الذي استخدمه الشّاعر مثيرة وهادفة، وغنيّة وحافلة بالدّلالات ، إنّها لغة السّياق الإبداعيّ الخاصّ الذي يحتاج إلى قارئ واعٍ موسوعيّ الثقافة مثقف وناضج لفهم سبر غور الشاعر وما يريد إيصاله إلى من يقرأ نصوصه الشعرية ، ناضج الوعي، متسلّح بطاقة اللغة القادرة على الإيحاء.

يعيش الشّاعر سعدي يوسف واقعاً قاسيّاً مستبدّاً، فيه ظلم كثير، ممّا جعل هناك فارقاً كبيراً بين واقعه وأحلامه ، وذلك دفعه لتوظيف الرّمز لكشف المفارقات التي يعيشها في واقعه، ومنحها مزيداً من الشّحنات الدّلاليّة، نحو قوله:[1]

أيّها الصّمت السّديميّ الذي يقتاتني

من أين يأتي الصّوت؟

بعد هنيهةٍ سأعود أخطو عبر قاعات المرايا

يأتي الصّمت رمزاً للتّخاذل والتّواطؤ، ويأتي الصّوت

رمزاً للمقاومة، إنّها المقاومة التي يتوق عليها العربيّ للخلاص من عفن الحاضر

يبرز الشّاعر سعدي رمزه بهمّة عالية، معلناً الشّجاعة في عرض الحقيقة (سأعود أخطو عبر قاعات المرايا)، وليست قاعات المرايا إلا انعكاسات واهمة لحقيقة لا يريد الشّاعر فناءها في عالمٍ قميء.

لقد كان للرّمز حظّاً وافراً لدى الشّاعر، واستدعاه الشّاعر من ذاكرته، فحضر حضوراً ميثولوجيّاً حيناً، وسيكولوجيّاً حيناً آخر، ورؤيا شعريّة تنبّئيّة في أحيان أخرى؛ لذا حاول أن يكشف الواقع، ويرصد رموزاً أخرى يبحث بوساطتها عن الخصب والحياة والأمان، لكنّه ما يلبث أن يتماهى مع المستويات الحياتيّة التي تمخّضت عن تجربته الشّعوريّة، فيلجأ إلى التّساؤل بحثاً عن الحياة الحقيقيّة، نحو قوله :[2]

من قال: إنّ الوصول يؤدّي؟

ومن قال: إنّ الطّريق انتهاء الطّريق؟

لك السّور والبرج والسّاهرون به

الليل والويل

لكن صفاء لما تزل –كالجبال – البعيدة

فلتعتبط!

ولتظلّ المدينة نائية في اختلاج الجفون

يمثل الطّريق رمزاً للنّضال والكفاح ونيل المبتغى، ويمثل الليل رمزاً للظّلم والجور، فالشّاعر يريد إبراز عبثيّة السّعي العربيّ في ظلّ الفساد الاجتماعي والدّوليّ، ففي قوله: (لك السّور والبرج والسّاهرون به) إشارة رمزيّة إلى كلّ التّرف والعهر والفسوق الذي تمارسه الطّبقة الغنيّة والمسؤولون، ثمّ تأتي النّتيجة (الليل والويل)، معلنة الأثر الفادح الذي عانى منه العرب وما زال.

لقد استحضر الشّاعر الرّموز وقام بمعالجتها لغويّاً بما يخدم إيصال المعنى الذي يريده، فالغرفة عادة حين تكون

[1] - الأعمال الشّعرية، سعدي يوسف، ج٣٧٨/٢.

[2] - الأعمال الشّعرية، سعدي يوسف، ج١٣٢/٢.

مغلقة تشير إلى الأسر والضّيق، ولكنّنا نجد الشّاعر يقوم بتصغيرها ليزيد من فداحة ذاك الضّيق، ثمّ يقول:[1]

الغُرفة ملأى بالمسامير
غادرها السّاكنون
وما خلفوا لي إلا المسامير
دقّوا مساميرهم في الخشب
أولجوها بقلب الحديد
ثمّ لم يتركوا أثراً غير هذي المسامير
عند رأسي مسامير
ملء فراشي مسامير
حتّى الهواء مسامير

يدور المقطع الشّعري السّابق حول رمز المسامير الذي يشير إلى المعاناة والظلم والقهر ويرمز إليها، فكلّ ما في حياة الشّاعر عوائق ومسبّبات ألم وجدها في كلّ ما يحيط به رأسه وفراشه وحتّى الهواء الذي يتنفّسه، وبما أنّ الهواء رمز للحياة، فقد لخّص الشّاعر اكتظاظ أنواع المعاناة في حياته.

لقد أدرك الشّاعر سعدي يوسف ضرورة النّهوض في مواجهة الواقع البائس، ودار في فضاء انبعاث الدّلالة ليصل إلى مقاليد المحاولة، إنّها محاولة الوصول إلى الشّواطئ المليئة بالاطمئنان والأمان ولا بد من الإشارة أن الشاعر أجاد وأبدع في استعمال الرمز للدلالة على الواقع المؤلم.

فلا بد من الإشارة بالرغم من أن الشاعر سعدي يوسف ولد في العراق في البصرة في قضاء أبي الخصيب الكثيف الأشجار والنخيل عام ١٩٣٤م إلا أنه توفي في دار الغربة والألم في بريطانيا ٢٠٢١م

بعيدا غريبا ووحيدا عن وطنه وأهله ومجتمعه، مات وهو يحلم بأن يعود لتلك الأيام التي عاشها في العراق.

[1]- الأعمال الشّعرية، سعدي يوسف، ج٣/٢٠٠.

*** الرّمز في شعر أحمد مطر**

الرّمز في شعر أحمد مطر رمز شعريّ وأدبيّ في الوقت ذاته، فلكلّ من الرّموز لديه مرجعيّات تحدّد طبيعة الرّمز، وقدرة المتلقّي على ترجمة دلالة ذاك الرّمز، لكنّها التّرجمة التي ترافق شفافيّة ذاك الرّمز، وتحفيز الوعي القارئ على توسيع وإدراك قراءاته وكما عرف الشاعر بكثرة استعماله للرمز وكثرة تهكمه واستهزائه وتمرده على الواقع المؤلم، نجده يبدع في الرمز ففي قول الشّاعر:[2]

جاري أتاني شاكياً من شدّة الظّلم
تعبت يا عمّي
كأنّني أعمل أسبوعين في اليوم!
في الصّبح فرّاش
وبعد الظّهر بنّاء
وبعد العصر نجّار
وعند الليل ناطور
وفي وقت فراغي مطرب
في معهد الصّمّ

يحاول الشّاعر أن يرسم برموزه مشهداً من مشاهد الواقع المليء بالبؤس والكدح، فهو يعمل أسبوعين في اليوم، وهذه المفارقة عمّقها باستعمال الرّمز، حين جعل معهد الصّمّ رمزاً لعدم التّفاعل والاستجابة من قِبَل الآخر، حين قال: (مطرب في معهد الصّمّ)، وكأنّه يدور في حلقة مفرغة، خالية من كلّ مقوّمات الرّاحة والطّمأنينة.

ويحاول الشّاعر مطر أن يرصد استمرار الشّقاء والكدح حين ملأ أوقات حياته بأعمال الكادحين المختلفة، فهو في الصّباح فرّاش، وفي النّهار بنّاء، وعصراً نجّار، وفي الليل ناطور، وهذا الاكتظاظ يشير إلى شقاء متواصل.

[2]- المجموعة الشّعريّة، أحمد مطر، دار العروبة، بيروت – لبنان، د.ت، ص٢٥٥.

وفي قوله :[1]

أنا عصفور... وشأني
أن أغنّي وأطير
من ترى يحبس فنّي
وفضاء اللحن أقلامي
وأوراقي الأثيرة

نجد الغناء رمزاً لحرّيّة والتّعبير، والطّيران رمزاً لحرّيّة الحركة، ونجد الأقلام تجسيداً لحرّيّة التّعبير.

إنّ حضور الغناء في لغة النّصّ يحيلنا على جماليّة التّفاؤل حين نحلم بالغناء، والغناء ينتمي إلى الحقل المعجميّ للسّعادة والفرح والنّصر والتّعبير، فالشّاعر يوظّف فكرة الغناء التي سيطرت على معظم شعراء الوطن العربيّ في مشاهد التّغنّي بالنّصر والفرح والتّفاؤل والأمل بحياة كريمة، وكأنّه يستحضر هذا التّفاؤل، لكنّه يضع القارئ أمام مفارقة هي أنّ هذا الغناء حقّ، لكنّه حقّ حرم منه الشّاعر .

لقد حقّق شعر أحمد مطر وثبة حقيقيّة في ميادين التّعابير الرّمزيّة؛ إذ نجد كلّ قصيدة رمزاً، ومعظم كلماته رموزاً، فنجده يبني لغة أخرى بلغته، ويحثّ القارئ جاذباً إيّاه، مستنهضاً انفعاله وهمّته، ففي قوله:[2]

كيف أعطيك ثماري
بعد أن ألغيت نبتي؟!
تطلب البيعة منّي؟!
أعطني رأسي لكي أعطيك صوتي
أعطني صوتي كي أعطيك صمتي
أعطني صمتي لكل أعطيك موتي
أعطني موتي... كفاك الله شرّي
وكفاني شرّ تضييعي لوقتي
بين عيش ليس يمضي
ووفاةٍ ليس تأتي!

نجد الرّأس رمزاً للفكر والتفكير، والصّوت رمزاً لحرّيّة التّعبير، والصّمت رمزاً للاستسلام، والموت رمزاً للشّهادة، إنّها صورة مليئة بطلباتٍ لن تتحقّق في استحالة حياة البؤس والمعاناة المستمرّة، ونهاية مستحيلة لتلك الحياة وكأن الشاعر يحلم بالموت ويتمنى الموت من أجل كرامته وحريته وكلمته التي لا يبيعها، إنّ رأس الشّاعر دلالة على فكره ، هذا الفكر المقيد المسلوب الذي وُئِدَ قبل أن يُدرِك النّور، فكان الرّأس رمزاً لذاك الفكر، ولكنّه الرّأس الضّحيّة، والفكر المسلوب ، لهذا السبب الشاعر غريب ومغترب

إنّ الشّاعر في سياق استعماله الرّموز يبني مشهداً تراجيديّاً لواقعه ولأعماقه السّوداء، إنّه مشهد يكتظّ بكثير من تداعيات القهر وسيطرة الغربان البشريّة، والطّبول الجوفاء على مساحات الأحداث العربيّة، فكان لزاماً على الأديب أن يصرخ في وجه واقعه ويعبّر عمّا يراه، ويُفصح عمّا يريده، وفي الوقت ذاته نجد قدرة الشّاعر على فضح الأيادي السّوداء التي اغتالت حرّيّة التّعبير وأضاعت فرص العرب في تحقيق السّيادة والاستقلال، أو على الأقلّ الشعور بعروبتهم وانتمائهم إلى هذا الوطن المغْتَصَب الذي تهافت عليه الجميع، ووقف أبناؤه أمامه موزّعين بين عاجز ومتواطئ، إلا ما ندر منهم.

يشكّل الملح رمزاً من الرّموز التي استعان بها الشّاعر لرصد القضاء على كلّ أنواع الأدواء، فلكلّ داء دواؤه، لكنّ الملح الرّمز دواء لكلّ داء، وهذا ما نراه في مقطوعات شعريّة لكثيرين، ومنهم شاعرنا الذي قال :[3]

ملك يأتي إليه
يُسقط الظّلّ عليه

[1]- المجموعة الشّعريّة، أحمد مطر، ص٢٦٥.
[2]- المجموعة الشّعريّة، أحمد مطر، ص٢٧٠.
[3]- المجموعة الشّعريّة، أحمد مطر، ص٣٠٦.

ولهذا يذهب النّهر إلى البحر
لكي يغسل بالملح يديه

إنّ الملح رمز للتّطهير والقضاء على كلّ الجراثيم والفيروسات، إنّه رمز للقضاء على الشّرور والأذى والقذارات فالشاعر أشار إلى الملح ليدل على المغزى الحقيقي للدلالة وهي التطهير والنظافة . لقد تشرّب الرّمز الجزئيّات الرّؤيويّة، وأصبح لغة إيحائيّة لا تبوح بالمعاني الجليّة، لكنّها تعطي ما وراء السّطور، وتقرأ ما وراء اللفظ الشعري ، وشاعر كأحمد مطر متمرد وغاضب لا يكتب شيء إلا لهدف مرجو ، ويُشكّل الرّمز وسيلة من وسائل الدّقّة في إبراز الحقائق، لكنّها الدّقّة التي تستدعي ثقافة قرائيّة خاصّة؛ لذا لن نستغرب ثراء المتن الشّعريّ بتلك الرّموز، ولاسيّما في العصر الحديث الذي قلّ فيه التّصريح وكثر التّلميح، على نحو ما نجد لدى شاعرنا وهو يصف الفساد الذي حلّ بالوطن العربيّ، وهيمن عليه بسبب سوء الحكومات وتصرّفات المسؤولين، فقال:[1]

قال الطّبيب بعدما
دسّ بكفي العلبة
خذ حبّة واحدة
من بعد كلّ وجبة
هتفت: يا للخيبة!
هذا الطّبيب جاهل
وحقّ ربّ الكعبة
ليست لديه علّتي
لكي تداوي طبعه

إنّ الطّبيب رمز للفساد الاجتماعي، فقوله: (دسّ بكفي) يحمل ما يحمل الفعل (دسّ) من سرعة في إخفاء المسلوب، فالمنظر الوقور للطّبيب تحوّل إلى منظر لهذا القناع الانتهازيّ الخالي من الإنسانيّة، فهو يندّد بالطّبقة الرّاقية التي ينبغي أن تكون ذروة الأخلاق، ولاسيّما الأطباء الذين يحملون رسالة إنسانيّة هدفها إنقاذ الآخرين من المعاناة لكننا نجد أغلبهم بل أكثرهم مستغلين وطماعين واستغلاليين.

ولكنّ الشّاعر يفضح تلك الطّبقة التي لا تشبع ولا تقنع، ويجعل وقار الطّبيب لغة ساخرة لجرم (يدسّ في جيبه) ثمن معاناة الآخر وهذه حقيقة واقعية للأسف الشديد نعيشها ونتلمس آثارها في المجتمع

وفي قول الشّاعر :[2]

قال بغل مستنير واعظاً بغلاً فتيًّا
يا فتى إصغِ إليّا
إنّما كان أبوك امرأ سوءٍ
وكذا أمّك قد كانت بغيّا
أنت بغل
يا فتى والبغل نعل
فاحذر الظّنّ بأنّ الله سوَّاكَ نبيّا
يا فتى... أنت غبيّ
حكمة الله، لأمر ما، أرادتك غبيّا

يمثّل البغل رمزاً للطّبول البشريّة الفارغة التي تدّعي العلمانيّة، وهي في حقيقة أمرها لا تملك من العلم شيئاً، فرسم الشّاعر عبر محاكاة اقتباسيّة جميلة لقصّة مريم عليها السّلام، مشهداً موحياً بكلّ العهر الاجتماعيّ المهيمن، وتورّم الأنا الفارغة التي تعتقد أنّها تملأ الدّنيا، فيأتي الشّاعر ليفضحها مجرّداً كلّ الأقنعة، معطياً كلّ شيء حقّه.

تعود موهبة الشّاعر في استحضار رموزه إلى موهبة فذّة، وقد استعان بتقنيات كثيرة لإبراز تلك الرّموز، وإثمار تلك الموهبة، نحو قوله :[3]

[1]- المجموعة الشّعريّة، أحمد مطر، ص٣٠٣.
[2]- المجموعة الشّعريّة، أحمد مطر، ص١٩٩.
[3]- المجموعة الشّعريّة، أحمد مطر، ص١٨٢.

عندي قلم

ممتلئ يبحث عن دفتر

والدّفتر يبحث عن شعر

والشّعر بأعماقي مضمر

وضميري يبحث عن أمن

والأمن مقيم في المخفر

والمخفر يبحث عن قلم

عندي قلم

وقّع يا كلبُ على المحضر!

ندرك تماماً أنّ القلم رمز لحرّيّة الإبداع والتّعبير، والشّعر رمز للعاطفة المتّقدة في أعماق الشّاعر، وقد استحضر الشّاعر هذه الرّموز ليرسم مشهد السّعي لإيجاد ما يسعفه على التّعبير، فالقلم يحتاج إلى دفتر، والدّفتر يحتاج إلى شعر، وتستمر سلسلة التّرابط، تلك السّلسلة التي يعلن الشّاعر أنّه يمتلك بدايتها (عندي قلم)، ثمّ يختم نصّه بالتّذكير بامتلاك أداة البدء، (عندي قلم)، لكنّه قلم عبثيّ لم يستطع الشّاعر أن يخطّ بوساطته أيّة حقيقة سوى خيبته وطلباته التي لم تبصر النّور.

وفي قوله :[1]

هتفتْ بي: إنّني متّ انتظارا

شفتي جفّت

وروحي ذبلت

والنّهد غارا

وبغاباتي جراح لا تداوي

وبصحرائي لهيب لا يداري

فمتى يا شاعري

فمتى يا شاعري

تطفئ صحرائي احتراقاً؟

ومتى تدمل غاباتي انفجارا؟!

الشّفاه الجافّة رمز للظّمأ والعطش الشديد، وانعدام حرّيّة التّعبير، والنّهد الغائر رمز للجوع والحرمان وقسوة الألم، والجراح التي لا تداوي رمز للمعاناة القاسية التي يعاني منها المظلوم، والصّحراء رمز للوجود العربيّ، ورغبة الشّاعر في إطفاء الصّحراء هو رمز بتحوّل جذريّ يبعث الحياة الجديدة.

لقد كتب الشّاعر بلغة تعبيريّة صادقة، وبصورة رمزية واقعية حقيقية بعيدا عن الخيال وعن التصنع، مستعيناً بطاقة الكلمة الإيحائيّة، وتحويل الرّموز إلى أدوات إفصاح عن فكر حرّ طالما سعى الشّاعر إلى استعماله سلاحاً حقيقيّاً وناجعاً لمواجهة الظّلم والمعتدين.

*** الخاتمة**

لقد كان الشّعر العربيّ الحديث (خصوصا الشعر العراقي)، مصدراً ثريّاً للقراءات والإبداعات الرّمزيّة التي تجلّت لدى كثير من شعرائنا أمثال أحمد مطر وسعدي يوسف، الذين عانوا وما زال أغلبهم يعانون من الغربة والاغتراب والابتعاد عن الأهل والوطن بسبب مبادئهم، وقد وجدنا لدى قراءة إبداع كليهما: –

١ – الرّمز تقنية من تقنيّات البوح والتّلميح والإيحاء عمّا تعجز اللغة المعياريّة عن البوح به.

٢ – تعدّدت ألوان الرّمز وأدواته في شعر الشاعرين، وكان كلّ منها حاملاً ثرّاً للدّلالة الخصبة.

٣ – كان الرّمز ضرورة اقتضتها طبيعة الواقع العربيّ المؤلم في ظروف الاستغلال والقهر والظلم.

٤ – كان الرّمز لغة حداثيّة من لغات التّعبير التي أسعفت الشّاعر في الوصول إلى دلالة مكثّفة.

[1] - المجموعة الشّعريّة، أحمد مطر، ص١٧٠.

٥ – هدف الشّاعر إلى الخروج عن المألوف والسّعي للوصول إلى عمق الدّلالة التي تجعل الإبداع عمقاً لتعدّد دلاليّ قرائيّ وإيصال أفكاره بدقة وواقعية وسهولة للمتلقي.

٦ – يجسّد الشّاعران رموزهما بقوالب حيّة ومعنويّة تسمو بلغتيهما الشّعريّتين إلى أعلى درجات الرّقي والتّعبير بصورة رمزية راقية.

٧– سعدي يوسف خلال أيامه الأخيرة وهو في الغربة ويعاني من آلام المرض القاتل بقي يتمنى الخير ويتمنى العودة الى أحضان الوطن صور كل هذا بصورة راقية حزينة مؤلمة: – قمرٌ، مثل قشرِ الموز طافٍ على جفنةٍ من رصاص مُذاب قمرٌ بارغٌ، قمرٌ باردٌ يصطلي بأظافرنا وهي تخمشنا كالقطط قمرٌ من تراب، قمرٌ من رصاص مذاب، قمرٌ في بلاد الخراب كتبها وانشدها في لندن ٢٠٠٥/١١/١٧ وهو يحن ويئن للوطن والأهل ويبكي حياته وغربته

٨ – أحمد مطر رغم الغربة والألم والاغتراب وكثرة الترحال إلا أنه لم ينسى عروبته ويتغنى بها

يا شرفاء، هذه الأرض لنا، الزرع فوقها لنا، والنفط تحتها لنا وكل ما فيها بماضيها وآتيها لنا

*** المراجع**

الأعمال الشّعريّة، سعدي يوسف، منشورات الجمل، بيروت – لبنان، بغداد – العراق، ط١، ٢٠١٤.

جماليات الأسلوب، الصورة الفنية في الأدب العربي، د. فايز الداية، دار الفكر، دمشق – سورية، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م.

حركية الإبداع– دراسات في الأدب العربي الحديث، د. خالدة سعيد، دار الفكر، بيروت – لبنان، ط٣، ١٤٠٦ هـ– ١٩٨٦م.

الرّمزيّة، تشارلز تشادويك، ترجمة نسيم إبراهيم يوسف، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٩٢ م.

الرّمز والرّمزيّة في الفنّ التّشكيليّ، سعيد درويش، أ. د. عبد الله السيّد، محمّد محفل، مجلّة جامعة دمشق للعلوم الهندسيّة، مج٢٩، ع١، ٢٠١٣.

العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني، تحقيق: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت – لبنان.

المجموعة الشّعريّة الكاملة، أحمد مطر، مكتبة البواب، العراق، بغداد، ط١ ٢٠١٤م

المعجم الأدبيّ، جبّور عبد النّور، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط٢، ١٩٨٤ م.

معجم المصطلحات الأدبيّة، إبراهيم فتحي، المؤسسة العربيّة للنّاشرين المتّحدين، تونس، ط١، ١٩٨٦م.

الموسوعة الفلسفيّة، لالاند أندريه، ترجمة خليل أحمد خليل، عويدات للطّباعة، بيروت – لبنان، ٢٠٠٨.

نقد النثر، قدامة بن جعفر، حقّقه: د. طه حسين بك، وبعد الحميد العبادي، مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنّشر، القاهرة – مصر، ١٣٥٦ هـ – ١٩٣٧ م.